أثر المذهب الظاهري
في منهج أبي حيان الأندلسي

بقلم الاستاذ : محمود أبو كته

من هو أبو حيان ؟

هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين أبو حيان الغرناطي. كما اقترن اسمه في كثير من التراجم بألقاب عدة: منها الحياني، والغرناطي، والاندلسي (١). ولد في (مطخشارس) قريبا من غرناطة عام ٦٥٤هـ وتلقى تعليمه على شيوخ الاندلس ورحل عن الاندلس الى مصر عام ٦٧٩هـ.

ثقافتـــــه :

كان أبو حيان غزير المعرفة واسع الاطلاع ملما بلغات متعددة كالفارسية، والتركية، والحبشية، والبشمورية، بالاضافة الى لغته الام وما يتصل بها من علوم ومعارف فجاءت ثقافته واسعة جامعة بين اللغة والادب والدين والتاريخ وسير الرجال وعلم الكلام (٢).

وكان امام اللغة والنحو والادب والتفسير والقراءة والحديث في عصره وله التصانيف الكثيرة. قال عنه المؤرخ المقرى : وأما النحو فهو امام الناس كلهم فيه، لم يذكر معه في أقطار الارض غيره في حياته، وله اليد الطولى في التفسير، والحديث وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم (٣).

أثر المذهب الظاهرى في منهجه النحوى :

كان أبو حيان مالكيا ثم أصبح ظاهريا (٤). ولما استقر في مصر وقد انتشر فيها المذهب الشافعي تمذهب للشافعية (٥). ومع انه انتهى الى المذهب الشافعي الا انه ظل في نفسه تعلق بمذهب الظاهر، وذلك استنادا الى ما ذكره ابن حجر عنه بقوله: (وكان أبو حيان يقول : "محال ان يرجع عن مذهب الظاهر من علق

بذهنه" (٦)

فما مذهب الظاهر؟ والى اى حد سار فيه أبو حيان؟

مذهب الظاهر يعني: العمل بظاهر الكتاب والسنة بجميع الدلالات وطوع التمويل على محض الرأى (٧). وهو مذهب أخذ به أبو حيان وعول عليه كثيرا في تفسيره "البحر المحيط" اذ كان حمل الشيء على ظاهره أولى عنده من العدول عن الظاهر الى غيره، ولا يكون العدول عن الظاهر الى غيره جائزا عنده الا لمرجع وعليه فقد عمد أبو حيان الى نبذ التعليل آخذا بمذهب الظاهر.

ومن تمسكه بمذهب الظاهر ما قاله في تفسير آية الرعد: "وهو الذى مد الارض" (٨) وآية نوح: "وهو الذى جعل لكم الارض بساطا" (٩) على أن الارض ليست كروية، اذ قال في آية الرعد: (وقوله مد الارض يقتضي انها بسيطة لا كروية وهذا هو ظاهر الشريعة) (١٠)

وقال في آية نوح: (بساطا: تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه وظاهره ان الارض ليست كروية بل هي مبسوطة) (١١)

ومن نبذه التعاليل في الشرع أخذ بمذهب الظاهر قوله في البحر المحيط: (وقد اختلفوا في الصلاة التي حولت القبلة فيها، فقيل: الصبح. وقيل: الظهر. وقيل: العصر، وكذلك أكثروا الكلام في الحكمة التي لاجلها كان تحويل القبلة بأشياء لا يقوم على صحتها دليل، وعللوا ذلك بعلل لم يشر اليها الشرع، ولا قاد نحوها العقل، فتركنا نقل ذلك في كتابنا هذا على عادتنا في ذلك. ومن طلب للوضعيات تعاليل فأحرى بأن يقل صوابه ويكثر خطؤه، وأما ما نص الشرع على حكمته، وأشار أو قاد اليه النظر الصحيح فهو الذى لا معدل عنه ولا استفادة الا منه) (١٢).

ولئن كان المذهب الظاهرى قد ترك بصماته الواضحة على الفقه، وذلك بالوقوف عند ظاهر النص، والغاء القياس والعلل بأنواعها، فقد امتد هذا المذهب ليترك آثاره على النحو العربي أيضا. وما دعوة ابن مضاء القرطبي التي انطلقت في الاندلس منادية بالغاء العامل في النحو وترك العلل بأنواعها، والتأويلات الا ثمرة من ثمار المذهب الظاهرى، حين راح يقول في مقدمة كتابه (الرد على النحاة).

(قصدى في هذا الكتاب: أن أحذف من النحو ما يستغني النحوى عنه، وانبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه، فمن ذلك ادعاؤهم ان النصب والخفض، والجزم لا يكون الا بعامل لفظي، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوى، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا "ضرب زيد عمرا" ان الرفع الذى في "زيد" والنصب الذى في عمرو انما أحدثه "ضرب") (١٣).

فالى اى حد سار أبو حيان في هذه الطريق؟

في الحقيقة ان أبا حيان لم يدع الى ما دعا اليه ابن مضاء من الغاء نظرية العامل في النحو، ولكنه شاركه في الدعوة مرارا وتكرارا الى نبذ الخلافات

والتعليلات غير المفيدة كما دعا الى ترك القياس ما وجد عنه بديلا من السماع والنقل المأثور، وهو ما صرح به كثيرا في مصنفاته كقوله:

"وهذا الخلاف لا يجدى كثير منفعة" (١٤) وذلك في الخلاف بين البصريين والكوفيين في مسألة الاصل في المشتقات، هل هو الفعل أم المصدر؟

كما نراه يعرض عن اختلاف النحويين في معنى الصرف بقوله: (وهذا الخلاف لا طائل تحته) (١٥)

وفي معرض حديثه عن المضمرات واختلافهم في علة الضم، والفتح والكسر في ضمير كلمت للمتكلم وكلمت للمخاطب وكلمت للمخاطبة يقول أبو حيان:

وهذه التعاليل لا يحتاج اليها لانها تعليل وضعيات والوضعيات لا تعلل) (١٦).

كما يبدو لنا منهجه واضحا في دعوته الى نبذ التكلف والخروج عن الظاهر بلا دليل وذلك في باب المفعول المطلق عندما رد على السهيلي (١٧) وابن الطراوة (١٨) رأيهما القائل بنصب المفعول المطلق بفعل مضمر لا يجوز اظهاره، مثل قعد قعودا، أي: فعل قعودا عند ابن الطراوة، أو منصوب بقعد آخر ولا يجوز اظهاره عند السهيلي. وفي هذا يقول أبو حيان: (وهذا كله تكلف وخروج عن الظاهر بلا دليل) (١٩).

تلك أمثلة من نبذه للتعاليل والخلافات في كتابه الارتشاف اما في كتاب منهج السالك فقد نفر أبو حيان من طريقة النحاة وبخاصة متأخرى المشارقة لكثرة تعاليلهم، ومعارضتهم، وردود بعضهم على بعض في الحكم الواحد بما لا يعود على الدارسين بفائدة. وهو يرى لو أن النحاة استندوا في أحكامهم الى السماع الصحيح لكان ذلك اجدى لهم، وقد نص على ذلك في كتابه المسمى ب "منهج السالك الى الفية ابن مالك" حين قال: (النحويون مولعون بكثرة التعليل، ولو كانوا يضعون مكان التعاليل أحكاما نحوية مستندة للسماع الصحيح لكان اجدى وأنفع، وكثيرا ما نطالع أوراقا في تعليل الحكم الواحد، ومعارضات ومناقشات، ورد بعضهم على بعض في ذلك وتنقيحات على زعمهم في الحروف، خصوصا ما صنعه متأخرو المشارقة على مقدمة ابن الحاجب فنسأم من ذلك وما يحصل في أيدينا شيء من العلم) (٢٠)

ونراه يعرض عن التعاليل في باب الوضعيات من اللغة، لعدم الحاجة الى ذلك والوضعيات عنده لا تعلل فهو يقول: (وعلم العربية انما هو من باب الوضعيات وفي الحقيقة لا يحتاج فيه الى تعاليل كما لا يحتاج في علم اللغة الى تعاليل، فلا يقال لم جاء من التركيب في قولك زيد قائم هكذا؟) (٢١)

وهو اذ يغلق الباب على المعللين للوضعيات في اللغة العربية لا يكتفي باعطاء أمثلة على ذلك من لغته، بل يعقد مقارنة بين اللغة العربية وما فيها من وضعيات لا تعلل وبقية اللغات الاخرى، كالتركية، والفارسية، والبشمورية والحبشية ويضرب لذلك مثلا على حروف المضارعة في كل لغة من هذه اللغات ويعد هذه

الحروف من الوضعيات التي لا تعلل، شأنها في ذلك شأن الوضعيات في علم العربية، ومما قاله بعد أن مثل للافعال المضارعة على كل لغة من اللغات السابقة:

(... ولقد اطلعت على جملة من الالسن، كلسان الترك، ولسان الفرس ولسان الحبش وغيرهم، وصنفت فيها كتبا في لغتها ونحوها وتصريفها واستفدت منها غرائب وعلمت باستقرائها ان الاحكام التي اشتملت عليها لا تحتاج الى تعليل أصلا) (٢٢)

الهوامش

(١) فوات الوفيات ٤: ٧١، البدر الطالع ٢: ٢٨٨

(٢) شذرات الذهب ٦: ٤٥

(٣) نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ٣: ٢٩٥

(٤) البدر الطالع ٢: ٩

(٥) المصدر السابق ٢: ٢٩٠

(٦) البدر الطالع ٢: ٢٩٠، الدرر الكامنة ٤: ٣٠٤، بغية الوعاة ١: ٢٨١

(٧) البدر الطالع ٢: ٢٩٠

(٨) سورة الرعد من آية ٣

(٩) سورة نوح آية ١٩

(١٠) البحر المحيط ٥: ٣٦١، النهر الماد ٥: ٣٦٠

(١١) البحر المحيط ٨: ٣٤٠

(١٢) البحر المحيط ١: ٤٢١

(١٣) كتاب الرد على النحاة ص ٨٥

(١٤) همع الهوامع ١: ١٨٦

(١٥) المصدر السابق ١: ٢٤

(١٦) المصدر السابق ١: ٥٦

(١٧) هو أبو القاسم وأبو زيد عبدالرحمن بن عبدالله ولد بمالقة وسمع من أبن الطرواة توفي بمراكش ٥٨٣. انظر نشأة النحو، ص٣٣١.

(١٨) هو أبو الحسن سليمان بن محمد ولد بمالقة ورحل الى قرطبة فسمع من الاعلم كتاب سيبويه ٥٢٨هـ أنظر نشأة النحو ص ٢٢٩

(١٩) همع الهوامع ١/١٨٧ وانظر مخطوط ارتشاف الضرب دار الكتب المصرية رقم المخطوطة ١١٠٦ ص ٦٤٤

(٢٠) منهج السالك الى الفية ابن مالك ص ٣٢٦ مخطوطة بدار الكتب السرية تحت رقم ٥٦١ نحو

(٢١) منهج السالك الى ألفية ابن مالك ص ٣٢٥. مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٦١ نحو)

(٢٢) المصدر السابق ص ٣٢٦